أغاريد السحر

للأستاذ على النجدى ناصف

المدرس بكلية دار العلوم

ديوان للأستاذ الشاعر : على الجندى ، وسيط الحجم والقطع ، يقع فى قرابة أربعمائة صفحة ، ويتألف من أربعة أبواب : أولها فى الدين والتاريخ ، وبعض الموضوعات العربية والشرقية ، وقد جعل عنوانه « من الأعماق » . وثانيها فى الحماسة والوطنية ، وبعض مسائل الحرب والسياسة ، وقد جعل عنوانه « أصداء الحوادث » . والثالث فى شكوى الشعر وآلامه ، وجعل عنوانه « أنفاس الأشجان » . والرابع فى غزل الصبا ، وجعل عنوانه « نفخ الغوالى » .

فالديوان يعرض هموم قلب غزل ، وخطرات نفس شاعرة فى بعض ما عناها من آمر ، وأمضها من ألم ، وآثارها من شكوى ، وبعثها من رجاء ، وردها من يأس ، ويصور غير قليل من مسائل مصر القومية ، ومسائل الشرق والغرب التى لنا بها اتصال وثيق . أى أنه يعد بحق معرضا لحياة الشاعر الخاصة كما يحياها ، ولحياة مصر العامة كما تمثلت له ، وانفعلت بها نفسه .

ولقد قرأت هذا الديوان قراءة دارس ناقد ، يريد أن يقدره بقدره ، فى غير بخس ولا محاباة ، لا تمنعه صداقة الشاعر ولا حبه له أن يتحرى الحق فيه ، ويزنه بميزانه الدقيق ، فالحق أعز من أن يخذل وأقوى من أن يغلب ، وأبين من أن يطمس ، مهما جهد له الجاهدون ، وافتن فى الكيد له المفتنون لهذا لا أريد أن أسبق إلى الحكم له أو عليه ، ولا أن أرسل الكلام فيه فردا مبهما لا يؤنسه شاهد ، ولا يجلبه بيان .

مقدمات

وأول ما يلقاك من الديوان قصيدة للشاعر ، يصور فيها نفسه ، ويذكر كثيرا من خلاله . وكأنه أراد أن تعرف منها طويته ، وسمات شخصيته ، كما عرفت من صورته الشمسية قبلها ـ سمته ، وملامح شخصه . تلك صورة النفس وهذه صورة الجسم . والصورة الشمسية تمثـــله فى مطلع الشباب ، ونضرة الأهاب . والذين يعرفونه فى هذا الطور من حياته هم الذين يعرفون مبلغها من الأتقان وصدق الدلالة . أما صورته الشعرية فتمثله حق التمثيل ، كما يعهده أصدقاؤه جميعا ، حتى الفخر فيها بالحسب والنسب لم يعد الشاعر فيه حد الواقع المعروف . والقصيدة كلها جديرة بالرواية ، لـكننا نجتزىء منها بهذه الأبيات ؛ مراعاة للمقام :

لكل امرىء جهر يخالف سره ... وما لى من سر يخالفه جهرى
تطالع فى وجهى صحيفة خاطرى ... وتقرأ فى عينى ماحاك فى صدرى
خلقت كعيسى لا أجن ضغينة ... بقلبى ولا أطوى ضلوعى على غدر
ولا ناسيا صنع امرىء وجميله ... إلى ونسيان الجميل من الـكفر
ولم أر فى عسر مقرا بذلة ... ولا ساحبا ذيل المخيلة فى يسر
ولا ضارعا إلا إلى الله خالقى ... وإن قلبتنى الحادثات على الجمر

وتلى هذه القصيدة مقدمة الديوان ، وهى مسهبة ، تستغرق أكثر من ثلاثين صفحة ، كتبها صديقه الأستاذ محمد صالح سمك ، وجعلها ترجمة لحياته وافية ، أو صورة له نثرية ، تبين لدارس الديوان كل ماقد يحتاج إليه عن صاحبه من حقائق ومعلومات . فهى مقدمة من نوع جديد ، أراد الشاعر بها التعريف وخدمة الدرس ، لا مايراد عادة بالمقدمات . ولو أراد لقدمه من يود من أعلام الثقافة وأمراء البيان . ونحن إذ نحمد هذه المقدمة لانذم المقدمات المعتادة ، ولاندعو إلى تركها ، فليس إلى ذلك سبيل ، ولا فيه مطمع ، ولـكنا نود لو تضاف إليها مقدمات كهذه ، يكون فيها للدارس هداية وتبيان .

وإذا ما خلصت إلى الديوان ، لم تخلص بذلك من المقدمات ، فإنك واجدها أبدا فى رءوس الصفحات عند مطلع كل قصيدة ، وواجدها كثيرا أيضا فى الهوامش والذيول . فأما الأولى فلا أرى أن لها وجها ، ولا أن بأحد إليها حاجة ، لأنها تعليقات على الموضوع من المنثور أو المنظوم ، أومنهما معا يرويها لغيره ، أو ينشئها إنشاء . على أنهـــا فى شعر الغزل تعين المناسبات ، وترتب الوقائع ، حتى تجعل منه قصيدة متتابعة الفصول ، تجمع بين الحبكة والانساق . فهل تراه آثر أن يلتزمها فى سائر الأغراض ؛ طردا للديوان على وتيرة واحدة ، كما كان يفعل قدامى المؤلفين . أما المقدمات الأخر ، فالحاجة إليها ماسة ، لأنها تؤرخ القصائد ، وتدل على مناسباتهـــا ، ففيها عن تلك كفاية وغناء .

فن الشـاعر

— ١ —

تغلب السهولة والوضوح على ألفاظ الشاعر ، وتجرى فى تأليفها على أصح وجوه التأليف ، وأبعدها عرقا فى العربية ، وأشبهها بأبلغ الآثار فى أزهى العصور ، فلست بواقع فيها مهما نقبت على دخل ، أو سخف ، أو تفكك ، أو هزال . وربما أمعنت فى السهولة والرقة . فإذا هى الماء الدافق تصببا وانحدارا استمع لقوله من قصيدة « عبث الغيد » :

أيها الخاطب ودى لايكن قلبك صخره
بلغ العشق مـــداه فامنح العاشق زوره
أى ثأر لك عندى يقتضى موتى حسره
أتخاف الغدر منى أنا من تأمن غدره
شاعر الأخلاق يأبى كل ما تأباه عذره
جاء من كندة حرا والفتى يتبع نجره

وقد تقتصد فى السهولة ، فإذا رصانة مهيبة ، وفخامة وقور ، وأصداء

متجاوبة ، ورنات متجلجلة ، استمع إليه فى قصيدة « طيف خيالها »

ألمت به ليلى وقد رنق الكرى ... بعينيه وهنا بعد سهد ليالى
على حين ليلى قد تناءى مزارها ... وبتت على عمد وثيق حبال
سعى بيننا الواشى فأضمرت القلى ... وكم من هوى أودى بقيل وقال
ولم أقترف ذنبا ولا لى جريرة ... سوى أننى أزهى بها وأغالى
وقد كان يضنى القلب هجر دلالها ... فكيف به إن كان هجر ملال
فياليت شعرى مادهاها فأسرعت ... إلى وكانت لاتجيب سؤالى

وقد يسبق إليه بعض الكلمات يقل استعمالها فى المعنى الذى أورها إياه ، ولكن لايسبق إليه شىء من الكلمات الجافية ، أو الثقيلة الأداء . استمع له يقول من قصيدة « هجرة الحق والإيمان » :

وغرام للنفس أن يظلم الأهـ ... ـل على قربهم ويبغى القبيل[1]

ويقول من هذه القصيدة أيضا :

إنها جنـــة الإله على الأر ... ض فبسل على الأثيم الدخول[2]

بل إنه ليحتفظ بظابعه من الرقة والرشاقة فى الرجز ، كما يحتفظ بهما فى القصيد ، على ماتقتضيه طبيعة الرجز ، وتدفع إليه خصائصه من التوعر والغرابة ، استمع إليه يقول من أرجوزة « عمامتها البيضاء » :

عمـامة من يقق الحرير ... تضىء مثل هالة البـــدور
كأنما خيوطها من نور ... تندى بريا الزنبق المنضور
وعبق الجـادى والكافور ... تخـالها فى الفاجم المنشور
بشائر الصباح فى الديجور ... ليثت على رأس رشا غرير

ومرد هذه المزية عند الشاعر إلى صحة ذوقه ، وسجاحة طبعه ، وغزارة روايته من منتخل المنثور والمنظوم .

— ٢ —

وهو يتناول معانيه قصدا ، ومن قريب . فلا التواء ، ولا تعسف ،

(١) الغرام هنا : العذاب الدائم (٢) بسل : حرام .

ولا إيغال ، مما يكلف عنتا ، أو يسوم احتيالا ، فإذا هى واضحة مشرقة ، تسابق ألفاظها سعيا إلى الأذهان . وهذا مثال منها ، لم نؤثره بالاختيار ، ولكنا نشرنا الديوان ، فعرض لنا عفوا :

يالسان الإسلام ياقلبه الخا ... فق حبا باليثـــه الضوالا
قم فأنذر قوما يغطون نوما ... والرزايا عليهم تتـــوالى
قل لهم : إننا بناة المعالى ... كيف نغدو على الفرنج عيالا
قل لهم : هذه الشعوب تعاوت ... حولنا أذؤبا وثارت صلالا

ولا تفارقه هذه الخاصة أبدا ، حتى حين يتعاطى الحكمة ، ويضرب الأمثال ، لتأييد مذهب ، أو احتجاج لقضية ، لأنه يعول فى فلسفته وخياله على الحس أكثر مما يعول على العقل ، ويؤثر فى صوره الحركة والحياة على الألوان والخطوط . فمن أمثاله وحكمه قوله من قصيدة « تحية الثورة العربية »

ياقوم بعض وعيدكم فتى ... هاب الغضنفر صولة الهر
عسف الزمان يزيدنا كرما ... كالمسك نفاحا على الجمر

وقوله من قصيدة « بطل حطين » :

كيف يطوى الخذلان أعلام جيش ... البطـــولات كلهـــا نصراؤه
كل غاز لم يدرع شرف النف ... س هوى قبـــل أن يتم بناؤه

وقوله من هذه القصيدة أيضا :

لم ترنح له المخيلة عطفا ... وجميل من ظافر خيلاؤه

ومن تخيله وتصويره فى قصيدة « جبل طارق » :

علم تسامى غاربا وسناما ... تزهو الكواكب فوقه أعلاما
يأبى على غر السحاب جبينه ... تقبيلها فتقبـــل الأقداما
ويسير زخار العباب بسفحه ... متطامنا يحنى لديه الهاما
وتمر هوجاء الرياح حياله ... حسرى على أعتابه تترامى
وترى الحوارى لاتنال سلامها ... إلا إذا ألقت عليه سلاما
ماباله حضن المضيق كأنه ... صب تدله فى المضيق غراما

يرعى شواطئه بمقلة ساهر عاف المنام فلا يذوق مناما
رصد على البرين مد أصابعاً سفعا تصب على المغير حماما
وثوى على البحرين أرعن لايسا وشى الحديد على الجلامد لاما
لو ساور الجيش اللهام شعابه لقى الحتوف قذائفا وسهاما
أو خالفت شم الدوارع أمره طاحت على ثبج المياه حطاما

ولعل مرجع ذلك عنده إلى طبيعة المعلم وما اعتادت من التيسير والتقريب والأخذ بأسباب الأفهام والتمكين. ولو أنه جرى فى فنه على غير هذا السنن لكان منه ذلك عجبا، فأغلب الصفات النفسية عليه الشعر والتعليم، فهو معلما شاعراً أكثر منه أى شخص آخر، قضى ماتقدم من عمره بين التعليم والشعر. والتهيؤ لهما، فلا سبيل له طائعا أو كارها إلى التخلى فى شعره عن طبيعة المعلم وملكاته فى التفكير والتعبير، ولا إلى التخلى فى تعليمه عن طبيعة الشاعر وملكاته فى التخييل والتصوير. وسببان آخران، يرجعان إلى النفس، لا إلى الصناعة والعمل، أحدهما أن الشاعر رقيق الطبع، متواضع، لافيه كبرياء ولا غرور.

ومثله ولا جرم حقيق أن يفكر فى قرائه، ويحرص ما استطاع على أن يكون لهم مفهوما، ولديهم واضحا. والآخر أنه كما جاء فى مقدمة الديوان يخاف الأشباح، ويتقيها، فكأن فيه أنسابا لمرئيات والظواهر، ووحشة من البواطن الكامنة، والخفايا المستترة.

— ٣ —

وأسلوبه عربى محض، لاتشوبه شائبة عجمة، ولا ترى عليه أثارة سخف أو ضعف. وأين منه ذلك، وهو يحفظ القرآن الكريم، ويعول فى ثقافته أكثر مايعول على نتاج العقلية العربية. وأسلوبه على نقائه لايكاد يعتسف ضرورة، أو يأخذ على غير أليف مأنوس. لذلك تسمع له أبدا موسيقا عذبة النغم، مستوية الجرس، لاتحس فيها نبوا، ولا تجد منا نفوراً أو انقباضا.

وكثيراً مايكون أسلوبه خطابياً ، يغلب عليه التنويع والتقطيع ، فاستسال وتوقف أو التفات أو اعتراض ، وإخبار فتساؤل أو تعجب او إضراب ، فاذاجلجلة يتنوع فيها النغم ، وتتقاصر المسافات ، وتتابع الحركات فى رشاقة وإسراع . استمع لقوله من قصيدة « صولة الجمال » :

أقول لقلبي وهو أصل بليتي ومن كان ذا قلب فبشره بالهم :
أقلبي ، لقيت الويل مالك كلما نهيتك عن نعم أبيت سوى نعم؟
تمنيك نعم وصلها فعل خادع وهيهات مامنتك، من لك بالنجم؟

وقوله من قصيدة « بين بلاء الحب وبلاء العذل » :

أصحبي أنتم ؟ كيف هنت على صحبي؟ وكيف تولوا دون غيرهم حربي ؟
وكيف اغتدوا إلبا على مع الهوى وبعض الذى ألقاه لو أنصفوا حسبي
جنوا لى هما فوق هم يثودنى فوا عجبا للحب خطبا على خطب
أأشكو؟ لمن أشكو؟ ولو قد شكوتهم إلى الله أخشى أن يعاقبهم ربى
وأعتب لا، بل سوف أغضى على القذى وكيف ؟ وقد جل المقام عن العتب

ونعرف هذه الشنشنة من شوقى فى بعض شعره ، وبخاصة قصيدة « شهيد الحق » ، ونعرفها من قبله فى بعض شعر المتنبى ، وبخاصة قصيدته « بأية حال عدت ياعيد » . وكلا الشاعرين من أساتذة شاعرنا وأئمته الذين يحظون من حبه وإعجابه بقسط عظيم .

— ٤ —

وهو فى جملة شعره جياش العاطفة ، صادق الشعور ، بادى الانفعال . فما من قصيدة من قصائده الكبرى إلا تجد فيها هذه الأوصاف واضحة المعالم والسمات ، لايختص بها فن دون فن ، ولكن لكل فن منها نصيب ، ولو أنها تبدو فى الغزل أكثر وضوحا ، وأبلغ تأثيرا ، وهذا طبيعى ، فغزله حق وصدق يروى وقائع وقعت له ، ويصور عواطف جاشت بها نفسه ، واهتزت لها مشاعره ، فى فورة الشباب ، وسورة الصبوة . وليصدق من شاء أنى رحمت الشاعر ، وبكيت رقة له ، وعطفا عليه فى قصيدتيه : فجيعة العاشق ، وجنون

الشعر . وتصور الأولى حاله حين أنهت ليلاه إليه أنها خطبت، أى صارت لغيره ، ولم يبق له منها غير الحسرة والذكرى . وتراه فى هذه المحنة جازعا يتجمل ، وموجعاً يتصبر ، ووفيا يضنيه الوفاء رهقا، يؤثر سعادتها على سعادته ويضن بها أن تحتمل من ناحيته هما ، أو تستخق لأجله ملاما :

أنت الحياة لنفسى فلتنعمى ياحيـــاتى
حسبى من الحب أنى أحيا على الذكريات
لست الوفى لليلى ولست قيس هواها
إن ساءنى أن ليلى مناى نالت منـاها
وأين منى قيس وهو الخصيم لورد
وورد ليـلى لليـلى منحته صفو ودى
نعم فؤادى يهوى من أجل ليلى الخطيبا
وكيف يبغض قلبى شخصا إليه حبيبا

وتصور القصيدة الأخرى حاله حين خانه التجلد ، وغلبت عليه الفجيعة، فاذا اللوعة الصادعة ، والعذاب الأليم :

ادفنونى حيا ، وهل أنا حى ؟ وأريحوا مضنى الجوى من جواه
لست آسى على صباى وقد شا ب فؤادى فى عنفوان صبـــاه

وهذه قصيدة شهداء المعلمين مثلا من صدقه فى غير الغزل ، اقرأها كما قرأتها مرارا ، وانظر ماذا يصنع الشعر فى النفس حين يتوافى له التوفيق ، وبراعة التصوير ، وصدق العاطفة ، ودونك منها هذه الأبيات حتى ترجع إليها فى الديوان :

ماغاله الموت بل أودى به العمل كيف الحياة ولا سلوى ولا أمل؟
قالوا : هو الأجل المحتوم قلت لهم لو لم تخنه المنى ماخانه الأجل
يأس وبؤس يضيع العمر بينهما كلاهما شر مايمنى به رجل
أغرت به الموت أعباء تحملها لا يشتكى ، بعضها يعيا به الجبل
أمانة تثقل الأعناق مابعثت إلا لها أنبياء الله والرسل

قالوا: بها انهض، وسر فوق القتاد ولا تمش الهوينى، ولا تفتر، لك الهبل
هو الشهيد وإن لم ترو من دمه بيض السيوف ولا الخطية الذبل

شخصيته

— ١ —

على الجندى رجل مثالى، يؤمن بالكمال الأنسانى، ويخلص له، ولا يقبل التخلى عنه أو الترخص فيه، نزولا على حكم الضرورة، أو أخذا على سنن المصانعة والمجاراة. فليست الحياة عنده مغانم تؤخذ، ولا فرصا تنتهز وكفى، ولكنها مع ذلك أوقبله شرف وإباء، ومحبة ووفاء، وكرامة وتصون وقد وكد هذه المعانى عنده، وزاده بها إيمانا وعليها حفاظا ـ غلبة الحياء عليه، وتحرجه من كل مايمس شرف الحسب، وأصالة النسب، إخلاصا لهما، واعتزازا بهما:

أستغفر الأخلاق ماحسبى يرضى الدنيـة لى ولا نسبى

وله من قصيدة «أضاليل الأمانى»:

لا تعذلوه على الآخفاق كم رجعت من صيدها الأسد لم تكتب لها الظفر
لست القصير حجا، لكنه خلق عن كل رذل وسفساف به قصر
أرى موارد إن تعذب لمن وردوا فالسم إن صدروا والشرى والصبر

لكنه رأى الحياة على غير مايفهم، فأنكرها، وبرم بأهلها، وآثر العزلة على الخلاط، والانطواء على الانبساط. اغتناما للعـــافية، وتقززا من الواقع الكريه:

برمت بدهرى بل برمت بأهله فما الذنب للأيام بل لهم الذنب
أرقهم قلبا هو الصخر قسوة وأكرمهم نفسا هو الغادر الخب
يخونك من تصفيه ودك منهم على حين لاينسى الوفاء لك الكلب
خطبت الوداد المحض فى الناس جاهدا فما خطبة إلا أتى إثرها الخطب

إلى أن قال :

سأحيا وحيدا كالطريد وربما ... يسر الفتى بالبعد إن ساءه القرب
أردت على رغمى الخيانة أسوة ... بصحبى فما لى إرادتى القلب
وعاصانى الطبع الكريم ومن يكن ... له محتدى بأبى الدنايا له الضرب

وربما رجع النظر فى أمره وأمر الناس ، وعرض موقفه منهم وموقفهم منه ، فشبهت عليه الحقيقة ، وخيل إليه أن الوظيفة هى التى جنت عليه ، وردته عن النجاح ، بما قيدت من حريته ، وأوهنت من قوته ، وأذهبت من بشاشته فراح يلحاها ، ويود لو خلص منها ، فتنشط مواهبه ، وينفسح لفنه المجال :

بنى وطنى خاوا سبيلى وأنصتوا ... يطالعكم منى على النأى حسان
أيرضيكم أن يخرس القيد معزفى ... ويذوى فى صدرى من الفن بستان
دعونى أسجع فى ذرا الأيك أو أنح ... فيطرب مشتاق ويبكى أسيان
وأقسم لو صدعت غل وظيفتى ... لغردت تغريدا له يرقص البان

على أنه فى تبرمه وشكواه لايحقد ، ولا يصر . فما يكاد يصيب خيرا ، أو يظفر بمرجو حتى يغمره فيض من الرضا والسكينة والمودة . قال وقد سابق مرة فجاء سابقا :

رعينا لمصر عهود الوفاء ... وإن ظلمت مصر أهل الأدب
هى الأم فى كل حالاتها ... لها الحب فرض علينا وجب
تطالبنا أن نصون الوداد ... ولسنا نطالبها بالحدب
نشيد بأمجادها الخالدات ... ونشدو بأمداحها فى العرب

وما أرى بالوظيفة بأسا كبيرا ، ولا أن لها عليه كل الجناية ، ولكنه أراد الحياة على غير طبعها ، وتوقع من الناس مالا يكون فوقعت لذلك الجفوة ، وكان الانقباض والنفور . فما تصفوا الحياة ، ولا تطيب الصحبة الا لأحد رجلين : رجل لاءم بينه وبين عصره ، وراض نفسه على الاستجابة لنوازعه ومطاوعة مقتضى أحواله . ورجل متسامح صفوح ، يأخذ الحياة جملة ، ويعاشر الناس وإنه ليتوقع الأساءة منهم أبدا ، فإن وقعت لم يتعاظمه أمرها ، ولم

يشتد عليه وقعها ، وإن كانت الحسنة أكبرها ، وطاب بها نفسا ، كما يطيب بالخير يأتيه من حيث لايحتسب .

— ٢ —

وهو مسلم متدين ، قابض على دينه ، مؤمن به إيمانا راسخا . وعنده أن لاصلاح لحال المسلمين ، ولا سبيل لهم إلى النصر على أعدائهم ، واستعادة مجدهم إلا العود إلى الدين ، وانتهاج سنن الكتاب العزيز :

عجبت للمسلمين اليوم كيف عنوا ... للحادثات وذلت منهم القصر
تعدو عليهم ذئاب ليس ينقصها ... من ساكن الغاب إلا الناب والظفر
وبين أيديهم الذكر الحكيم هدى ... لو أنهم نصروا أحكامه انتصروا

إلى أن قال :

عودوا إلى السمحة البيضاء فهى لكم ... حصن النجاة إذا مانابت الغير
مشى على نورها آباؤكم قدما ... ثم المعاطس لاضغف ولا خور
كانوا الرياحين فى ظل السلام وما ... كانوا سوى الأسد والخطى يشتجر

وهو يرى أن المصائب التى تتتابنا من آفات وأمراض ، تنقص الأموال والأنفس والثمرات ليست إلا عقابا من الله على مخالفة دينه، والانحراف عن صراطه المستقيم :

قد بخلنا فعاث فى قطننا الدو ... د فسادا وبارت الأسواق
ورمينا بالانقسام وبالسق ... م عقابا وهو الجزاء الوفاق

واستمع إليه فى هذه القصيدة أيضا ينعى علينا بعض مانحن سادرون فيه من مناكر وآثام ، نبذر فيه المال بغير حساب ، ونضن بالنزر اليسير منه على إصلاح حال الفلاح :

رب رحماك آد كاهلنا العب ... ء ونامت بغلهـا الأعناق
أكل القمر ماجمعنا من الما ... ل وأخنت على العقول الزقاق
وجرى الشيب والشباب وراء ال ... حسن ركضا فكلنا عشاق

وشطوط البحار تحفل بالرجـ ـس ويلهو فى رمنها الفساق
والملاهى تشكو نكايتها فيـ ـنا وما جره علينـا السباق
ورأينا الفـلاح يقتله الجو ـع ولولاه أعوز الانفاق

وهو يمقت أوربة أشد مقت وأعنفه ، ويصف ساستها بالغدر ، وخلف الوعود ، وإشاعة الخوف فى الأرض ، والعدوان على الضعفاء ، خسة وبغيا :

توزع الأقوياء الشرق بينهم نهبا سوى ماحماه المرهف القصل
يخشى القوى وتحميه مهابته ظفر المغير وللمستضعف الهبل
يفنى الزمان ولا تفنى لهم حيل وجند إبليس لاتعييهم الحيل
فلا تغرنك ألفـاظ منمقة منهم فرب غزال صاده الغزل
شريعة الغاب أوربا تدين بها فكل ماتخرج الأيدى لها نفل

وهو فى جملة أمره متشائم حزين ، تثقله الهموم ، وتضنيه الكآبة ، ثم لايجد فى الناس من يشكو إليه ، ويأنس به ، فيتجه إلى هلال السماء ، يبتغى عنده الإشكاء والإيناس ، ولكنه لايكاد يرى نضرته ، ويؤخذ بوضاحة جبينه حتى ينصرف عما تهيأ له ، ويأخذ فيما هو أعلق بذهنه . وأغلب على نفسه من أحاديث الكآبة والهموم ، فنصح للهلال ألا يخدع بحاضره عن مستقبله ، ويغفل عن نحسه فى سعده ، فينسى أن كل نضرة إلى ذبول ، وكل كائن إلى زوال ، وإن طال الزمان ، كأن الشاعر قد صار إلى حال لايروقه فيها ، ولا يخف على نفسه معها إلا مشاهد التجهم والعبوس :

أترى ياهلال تسمع شكوى إن شكا بثه السرى النبيل
ضقت ذرعا بالدهر والأرض والنـ ـاس فهل يرتجى إليك وصول
ياهلال السماء يابن ذكاء أنت فى الأفق حيجر مسلول
لاتغرنك نضرة وبهـاء وجبين على السرى مصقول
كل نجم وإن تألق دهراً كتب الله أنه سيزول

وقد تنقشع الكآبة عنه ، أو تخف شدتها عليه ، فتطيب نفسه ، ويسكن جأشه ، وتأخذه دعابة عذبة رقيقة ، تصحبها ابتسامة حائلة معجلة ، كأنها لمحة

البرق ، تلوح من خلال السحب المتراكبة فى الأفق البعيد :

طلبت الصوف عاما بعد عام فعاقتنى الحواجز والسدود
ولما أقبل (البون) المرجى إذا بالنقد من كفى بعيد
فقلت لجيبى الخالى عزاء فان النحس يعقبه السعود
وكم نعمى أتت فى طى بؤسى ووصل راح يزجيه الصدود
وحين تقطعت أسباب عسرى وشرد فاقتى العهد السعيد
وجاء (البنكنوت) إلى نضراً كما رفت على الصقل الخدود
وجدت الصوف مفقودا بمصر كأن الصوف وارته اللحود

وهو فى حقيقة أمره متواضع ، لازهو عنده ولا مخيلة حتى لتراه بعض الأحيان لايكاد يعرف لنفسه مزية ، أو يراها حقيقة بتقديم . استمع إليه وقد سبق فى مباراة كيف يفسر هذا السبق ، وإلى أى سبب يعزوه :

سبقت بحظى لا بالأدب ونلت على الضعف أولى الرتب
وجاء فى الشعر رأس الرعيل ولو أنصف الشعر كنت الذنب
فجليت غير مجل كما يطير الدخان أمام اللهب
وكم سابق فى مجال الرهان وأولى بغير يديه القصب

أما هذا الفخر الكثير ، نمر به فى مواطن شتى من الديوان فليس مبعثه الزهو أو الغرور ، ولكن مبعثه فيما أعتقد هو الاعتصام والتماس العون ، كأن الرجل كلما أخلفه الحظ ، وساء فى رأيه الجزاء ، على حين يسبق المتخلف ، ويمضى قدما فيما هو ميسر له - كأن الرجل حينئذ تراوده نفسه أن يغير من من حاله ، وينهج غير نهجه ، فلا يجد مايقنعها به ، ويستعينه عليها إلا هذه المفاخر يعرضها عليها ، ويعددها لها ، عسى أن يكون لها منها عزاء وسلوى .

وهو لايكثر من الهجاء . ولا يشتد فيه إلا مجازيا ، ولكنه على الحالين أليم شديد . استمع إليه فى قصيدة « بنات الطير » ، وتأمل كيف أوسع الطليان زراية وسخرا ؟ وكيف أذاقهم بما أساووا إلينا إبان الحرب الأخيرة — ذما

وجعاً ، هو على الحر أشد من وقع السهام :

ليس فخرا قتل البرىء المسالم ... فأرونا جلادكم فى الملاحم
أترون الحروب وهى فنون ... أن تروعوا تحت الدجى كل نائم؟
شرف الأسد أن تصول جهارا ... فتكة الغدر من خلال البهائم
يابنى رومة المغاوير مهلا ... إن قتل الجيران إحدى العظائم
مالكم كلما أمضتكم الحر ... ب ظمئتم إلى إقتراف الجرائم؟
ليت شعرى ماذنبنا إن منيتم ... فى الميادين بالخطوب الدواهم؟
أو نسطيع أن نحيلكم أسـ ... ـدا ولم ترزقوا طباع الضراغم؟
خفضوا الحزن واقنعوا بالذى ركـ ... ـب فيكم فالطبع للنفس حاكم

وهو فى جملة غزله متحرز محتشم ، يمسكه حياؤه وعفته ودينه ، ويرده فهم صحيح لوظيفة المعلم ، وشعور عميق بما يجب أن يكون عليه من خلق كريم . وقد لخص لنا معناه من الغزل ، وغايته من حب المرأة والإعجاب بجمالها تلخيصا صادقا وافيا فى قوله من قصيدة « شماتة الأصدقاء »

وكم مدلى سحر الحسان حبائلا ... فأبت إلى رشدى وأفلت ناجيا
سلام على الأخلاق إن ذهب الصبا ... بلب المرىء أو أطاع التصابيا
ولست عدو الحسن حاشاى إننى ... أرى الحسن ريحانى وروحى وراحيا
وكيف ولم تحو الجوانح مضغة ... كقلبى ينبوعا من الحب صافيا
ولكننا لا أمنح الحسن مهجتى ... إذا لم يكن معنى من النبل ساميا
أهيم به كالزهر حسبى أننى ... أراه جمالا فى الخمائل ساريا
فيمتعنى عينا وأنفا وخاطرا ... وآنف أن يمسى بكفى ذاويا

ولا يعدمك أن تقع فى غزله على سذاجة المتدين ، يصحبه سمته ، وتلازمه أدواته أينما حل :

وإليك الخيار أن تنجزى الوعـ ... ـد وقيت المطال أو تخلفينى
أنا بالله مستجير من الهجـ ... ـر وبالذكر والرسول الأمين

وهو شديد الوطأة على البخلاء ، يفتن فى تصوير نقائصهم ، ويدعو إلى الفض من شانهم ، ويتمنى لهم المكارة والآفات :

الناس فى اللؤم أنواع وشرهم عندى البخيل ألا سحقا لمن بخلا
ياليته حين لاتندى أنامله بالنائل النزر يندى وجهه خجلا
أعجوبة فى الورى أن البخيل على فقد الرجولة يدعى بينهم رجلا

إلى أن يقول :

ماذا على الموت لو أخنى بكلكله على اللئام فنشفى منهم العللا
ما نفع زعنفة بالمال قد فتنوا لايحسنون سوى تحصيله . عملا
لو كان لله ما للمال عندهم من الجلال لساروا فى التقى مثلا

وعلى مقدار كرهه للبخلاء ، وشدة سخطه عليهم تجد حبه للفقراء ، ورحمته بهم ، وألمه لما يلقون من عسر وحرمان . وأشد مايكون كذلك إذا كان لهؤلاء الفقراء ذكر معلوم ، وسابقة مذكورة . استمع إليه فى قصيدة «جبر الرسول» وانظر كيف يكاد يذوب برا وحنانا :

أتتنى عنكم الأنباء تترى فإن صحت فقد عظم البلاء
أحقا أنكم بتم جياعا ومن واديكم نبع السخاء؟
وأنكم حيال القبر صرعى أنينكم يغص به الفضاء
تفيض دموعكم ملء المآقى فيمسكها النصون والإباء

ثم استمع إليه فى خاتمتها ، وقد بلغ غاية مايبلغ المقل من السماحة والفداء :

أجيران الرسول دمى وروحى فداؤكم وإن قل الفداء
شجانى خطبكم فبكى قريضى عليكم والقريض له بكاء
ولو حيزت لى الدنيا جميعا لجدت بها وفى وجهى الحياء
وكنت كفيتكم جدوى أناس إذا نودوا أصمهم النداء
وكان لكم ولا من عليكم ثواب الله دونى والجزاء
ولكن حسبكم والمال يفنى دعائى ربما نفع الدعاء

وهو وطنى متحمس ، شارك فى الثورة الأخيرة بنصيب ، وكان له فى

تسجيل حوادثها ، وإذكاء الشعور بها عمل مذكور . وفى قصائده : « النفخ فى الصور » ، و« لجنة ملنر » ، و« عسف السلطة العسكرية » ، وغيرها آية ذلك ومظاهره . وهو على حماسته ، وشدة غيرته الوطنية ينكر استباحة الأعراض والولوغ فى الكرامات لتأييد الرأى ، ومناصرة الحزب ، شأنه فى ذلك شأن كل مثقف كريم ، يأبى المباترة واللدد ، ويعترف بحق الحرية للناس جميعا ، قال من قصيدة « المعارك الصحفية » .

أنى فتحت صحيفة وقعت عينى على أنقاض تمثال
يا ويحكم ألقوا معا ولكم هذا البناء جهود أجيال
زعماء مصر على كرامتهم مرغتموهم فوق أوحال

ثم قال :

بالأمس أكبرتم بطولتهم واليوم باتوا غير أبطال
أتراهم فى ساعة سلبوا ما كان من فضل وإفضال

وهو فى وطنيته الجامعة عربى شرقى ، يفخر بالعرب ، ويتغنى بمجدها ، ويحب شعوبها ، يدافع عنهم ، ويأسى لما يحيق بهم من بلايا الاستعمار . وهو مع ذلك يبر الشرق ، ويغار عليه ، وينكر تخاذله ، وتخلى بعض أبنائه عنه ، وانضمامهم إلى أعدائه ، مما مكن للغرب منه ، وهيأ له بسط سلطانه عليه . وترى آثار هذا وذاك جلية فى قصائده : « تحية الثورة العربية » ، « وأيقظ النيام » ، « ولبنان الحر » ، « وتعارف الشرق وتآلفه » ، « وشباب العروبة » وغيرها . ومن قوله عن العرب فى قصيدة « أيقظ النيام » :

أين قحطان أين عدنان أين السـ ـمر حتما والبيض تزهو صقالا
ظفر الترك باللـواء وبتنا نملأ الجو من عويل الثكالى
ذاك صهيون قبح الله صهيو ن ، تمادى فى غيه واستطالا
لا تقولوا : ما تفعل الريح بالطو د فقد يقتل البعوض الجمالا

ثم قال :

انصروا الله وامحقوا عهد بلغو ر فقد كان خادعا ختالا

أدرى فى الجحيم ما جره العم ـ د وأن التنفيذ بات محالا

ومن قوله عن الشرق من قصيدة « أيهما المسئول » :

أخلاقنا داؤنا رأى فتى أصيب فى خلقه فلم يهن
مصيبة الناس فى خلائقهم أخف منها مصيبة الدرن
أدواؤنا القاتلات ما تركت فى الشرق ذا غيرة بلا شجن

ثم قال :

شعوبه كلها سواسية تمد للغرب عين مفتتن
فى كل صقع أرى صنائعهم تثير فيه عواصف الفتن
من كل ذى لوثة وذى نزق يخيط للشعب أسود الكفن

(٣)

والذين يعرفون الشاعر — يشهدون أنه كثير القراءة ، واسع الرواية من شعر الفحول فى شتى العصور ، ولكن الذين تبدوا لنا آثارهم جلية فى فنه ليسوا كثيرا . وهذا معقول ؛ فالانسان لا يتأثر كل من يقرؤه ، أو يروى له ولكن يتأثر منهم أشبههم به ، وأحبهم إليه ، وأكثرهم مجاوبة له ، وأوفرهم نصيبا من إعجابه ، كدأبه مع أساتذته ، وكل من يمكن أن يكون لهم فيه تأثير . وهو لا يتأثر هؤلاء على درجة واحدة ، بل على درجات متفاوتات .

وعندى أن أشد الشعراء اتصالا بالأستاذ الشاعر ، وأظهرهم عملا فى نفسه هم : شوقى ، والمتنبى ، والبحترى ، وأبو تمام ، والبهاء زهير ، فلكل منهم فى فنه سمة بادية تدل عليه ، وتذكر به . فأنت تذكر شوقى أو تراه فى شعر الأخلاق ، إذ تقرأ لعلى الجندى قصيدتيه : « أزمة الأخلاق » ، ومصاصو الدماء » ، وما يماثلهما . وتذكره أو تراه فى ختامى « ذكرى المولد » ، (ونهج البردة) ، إذ تقرأ لشاعرنا هذه الأبيات يختم بها قصيدة (فلق الصباح) :

يا خير مبعوث لأفضل أمة عطفا على الاسلام فى أرزائه
أنت الغياث إذا الخطوب تذاءبت وافتنت الاحداث فى إيذائه
هذى شعوبك تحت ظل هلالها غرباء أضياف على غربائه

متخاذلون فكل شعب سادر في لهوه مفض على أقذائه
فقد البطولة وهى أنفس إرثه فرجائه فى الروع دون نسائه
فاشفع بجاهك عند ربك إنه أعطاك ما أرضاك من نعمائه

وأنت تذكر المتنبى حين تمر من شعر صاحبنا بهذه الحكم والأمثال المنبثة فى شعره ، على توال حينا ، وافتراق حينا آخر . وتعد قصيدتاه (تحية الثورة العربية) ، (وبطل حطين) ، من أحفل شعره بذلك ، وأدله على ملكته فيه وتذكر البحترى بهـــذه الديباجة المشرقة تتراءى لك أينما قرأت ، وتذكر أبا تمام بهذه القوا فى المتمكنة ، تراها جهرة ، أو تلمحها مطوية فى مطالع الأبيات أو فى أثنائها ، فتمضى إليها ، وأنت عالم بها ، فما تحس إذ تبلغها مفاجأة منها ، أو إنكارا لها ، لأن الطريق إليها قاصدة ممهدة ، حتى لقد تنحدر إليها انحدارا فما تشعر إلا وقد بلغتها بغير محاولة ولا إعمال رأى . وهو ما يسمى فى البديع بالتوشيح والارتصاد . خذ مثلا قوله من قصيدة (أبو الأشبال):

ساسة ورثوا طباع الأفاعى ملمسا ناعما ، ونابا حديدا
كبلوا النيل بالقيود فثار الـ ـنيل فى وجههم يفض القيود
وأبوا غير أن نكون عبيدا فأبى الله أن نكون عبيـدا

وتذكر البهاء زهيرا فى خفة موسيقاه ، وعذوبة روحه ، وحلاوة منطقه ، ورقة لفظه ، وظهور خصائص النفس المصرية فيه ، إذ تقرأ مثل قوله من قصيدة دلال الحسان :

قالوا : خبيبك قاس فقلت : صفو الزلال
وهجـــره لك مر فقلت . لكن حلا لى
وفيـــه زهو وتيـــه فقلت . لست أبالى
وعدت والوعد دين على كريم الخلال
إن كان وعدك حقا ففيم فرط الدلال
يا حلو رفقا بقلبى يا حلو رفقا بحالى

وفى قصيدة أيقظ النيام يأخذ مأخذ الجاهليين ومن إليهم فى الاستطراد البعيد ، يمضى إليه الشاعر من موضوعه الأصيل ؛ فيمعن فيه ، ويستكثر منه، حتى كأنه موضوع قائم بنفسه ، كاستطراد امرىء القيس من وصف الفرس إلى وصف العقاب فى قصيدة . ألا عم صباحا أيها الطلل البالى ، واستطراد لبيد من وصف الناقة إلى وصف الأتان فى معلقته ، وأبى ذؤيب الهذلى من الرثاء إلى وصف حمار الوحش فى مرثيته . أمن المنون وريبها تتوجع . قال الاستاذ على الجندى .

ورعى منك للعروبة حصنا عز كالأبلق المنيع وطالا
يحسر النجم عن شماريخه الشم وتهفو به البروق عجالا
هازىء بالرياح ترغو حواليـ ـه وهل تزحم الرياح الجبالا

مدرسته

كان للأدب فى مصر مدرستان . سلفية محافظة ، وعصرية مجددة. وكثيرا ما كان ينشب بين المدرستين خلاف ، ويثور جدال ؛ فكلتاهما تؤمن بمذهبها وتتعصب له ، وتنكر مذهب الأخرى ، وتتعصب عليه ، ولا سبيل مع هذا وذاك إلى تجنب الخصومة ، واتقاء النزاع . وكانت تنبت فى الفينة بعد الفينة ، وعلى حواشى المدرسة العصرية نزعات غالية ، أو دعوات جامحة ، لا تبلغ مبلغ النظريات المدروسة ، أو المذاهب الراسخة . ثم تقاربت المدرستان ، وتقارضتا بعض الخصائص والمزايا ، فاذا جدة رشيدة متزنة ، ارتضاها الناس ، ومضوا على سننها مجمعين ، لا يكاد يفرق بينهم إلا دواعى الطباع والملكات .

على أن الفوارق بين المدرستين كانت تبدو فى النثر أبعد مدى ، وأشد وضوحا . ولهذا نرى نثر اليوم غير نثر الأمس فى العبارة ، وطريقة التناول وأسلوب العرض ، وفى كل مقوم وصفة من مقومات النثر وصفاته . ولو أنك رجعت إلى رجل من رجال الجيل الماضى ، الذين أدركوا المذهب الجديد

وتأثروا به ، فعرضت قديما من آثاره وحديثا — لبدا لك الفرق بينهما كالفرق بين آثار رجلين يختلفان مادة وفيكرا ، كما يختلفان شخصية ومذهبا .

وسواء أكان مرد ذلك إلى المدرسة الجديدة وحدها ، هى صاحبته والعاملة عليه ، أم كان ثمة عوامل أخرى ، شاركتها فيه ، وأعانتها عليه — لانزاع أن النثر قد تحول ، وانتقل من طور إلى طور . أما الشعر فأمره مختلف جدا ، والفوارق بين قديمه وحديثه أقل وضوحا ، وأقرب مدى ، حتى لتوشك أن تكون فى جملتها أدنى إلى فوارق الشخصية منها إلى فوارق المدرسة

وليس فى هذا غرابة ولا بدع ، فالنثر أداة التعبير العامة ، يصطنعها الكاتب والشاعر والعالم ، وعليه المعول فى مطالب التعبير جميعا ، فهو أكثر تداولا ، وأعم استعمالا ، وأضخم آثارا ، ولا كذلك الشعر ، فهو أداة الشعراء وحدهم فى التعبير عن عواطفهم ، وتصوير الحياة كما تتمثل لهم . فطبيعى أن يكون حظ النثر من التغير أكبر ، وأن تكون الفوارق بين قديمه وحديثه أكثر . وحق لا مراء فيه أن نقسم النثر من أجل ذلك إلى قديم وحديث ، وأن نعد الأول نتاج مدرسة قديمة ، والآخر نتاج مدرسة حديثة .

أما الشعر فيبدو أن هذا التقسيم بالإضافة إليه لايخلو من إسراف ، ولو بالقياس إلى النثر على وجه الخصوص . ولعل مما هون هذه المبالغة ، وصرف الأنظار عنها أن الشعر والنثر صنوان ، يوشك التلازم بينهما أن يكون متصلا ويوشك الحديث عن أحدهما والحكم عليه أن يمتدا إلى الآخر ، ويعتبرا حديثاً عنه وحكما عليه أيضا . ولو أننا رجعنا إلى شعرى المدرستين ، ندرسهما ، ونتعرف الفوارق بينهما ، والحدود القائمة على أحقتهما — لم نجد من هذه وتلك مثل مانجد منهما حين نرجع إلى نثريهما لمثل هذه الغاية نفسها . فالسمات الكبرى متقاربة ، والخصائص العامة لايبدو بينها خلاف كبير .

وقد سمعت كثيرا من الشعراء والأدباء يتساءلون عما يعنيه المتصدرون للتجديد فى الشعر بالمدرسة العصرية ، والشعر العصرى ، ويودون لو عرفوا على التحديد الدقيق ، والبيان الجلى مبلغ الفرق بينهم وبين من يطيب لهم أن

يسموهم شعراء المحافظة والتقليد . وما أراهم فى هذا النساؤل ولا فى هذه الحيرة بمتجاهلين ولا متعنتين فالأمر فى الواقع على مايجدون ، يحتاج إلى تفسير مبين ، وتحديد لالبس معه .

وكل ماهنالك مما يفهم فهما ، ويكون له فى الخلاف شأن كبير هو العبارة ، وموقف الشعراء منها ، ونظرهم إليها . فمنهم معنى بها ، متشدد فيها ، يحرص ماوسعه الحرص ، وواتته الطاقة أن تكون موصولة النسب بالعبارة الكريمة فى أزهى عصور البيان . ومنهم متسهل ، متسامح ، لايجعل العبارة همه ، ولا يعنيه أن تكون شائعة متداولة ، من أعم مايقول الناس ، ويديرون فى شتى أفانين الكلام .

فتميز الأولون لذلك فى شعرهم بظواهر ثلاث ، يأخذ بعضها بحجز بعض.

الأولى ، أنهم جعلوا للشعر لغة خاصة ، قصروها عليه ، والتزموها فيه ، أو كادوا . وأعم ماتعرف به هذه اللغة التصون والأصالة . فما كل كلمة صحيحة تقبل فيها ، ولا كل عبارة سليمة تصلح لها .

والثانية ، أن عبارتهم إما أنيقة مترفة ، أو جليلة مهيبة ، أما موسيقاهم فهى دائما عذبة النغم حلوة الوقع ، تكاد فى أكثر الأحيان تصرف عن المعنى وما ينطوى عليه .

والثالثة ، أنهم فى سبيل الحفاظ على هذا الطراز من اللغة قد يستعيرون أشتاتا من القوالب اللفظية المأثورة ، لاتحسن التعبير عن إحساسهم ، أولاتحسن تصوير الحياة التى يعيشون فيها . وهذا بلا ريب تلفيق فى التعبير والتصوير . وإنما يراد من الشاعر أن يكون فيهما صادقا ، يبين عن نفسه ، ويعرض الحياة من وجهة نظره ، وكما تتراءى له .

وفى الحفل الذى أقيم لتكريم الشاعر خليل مطران فى العام الماضى ذكر الخطباء هذا الفرق بين الشعرين ، وأكدوه ، وجعلوا إليه الفصل بين المجددين يقودهم خليل مطران ، والمقلدين يقودهم أمير الشعراء رحمه الله .

وعندى أن خطب الخلاف فى العبارة ليس بذى خطر كبير ، فالعبارة

ليست كل شيء فى الشعر ، ولا هى عنصره الأهم ، وإذا لم يكن بدمن المفاضلة بين نوعيها المذكورين فالفضل فيما أرى للتصون الأصيل . صحيح أنه قد يغرى بالتلفيق الذى ذكرنا آنفا ، ولكن هيهات أن يزرى هذا العيب بها ، أو يوارى من جميع محاسنها ، فهو ليس مطرداً ، ولا كثيرا ؛ بل لاسبيل إلى اطراده والاستكثار منه لمن يريده عمدا وقصدا . فالقوالب القديمة لايمكن أن تسعف فى كل حال ، ولا أن تصلح لكل معنى يراد . وإذا كان هذا النوع من العبارة يغرى بالتلفيق ، فان نوعها الآخر لينقصه الكثير من جمال الديباجة ورنين الموسيقا .

ولهذا لاندرى كيف يحاول المسهلون فى العبارة أن يفرضوا على الآخرين طريقتهم ، ويجعلوها هى العليا ، ويجعلوا طريقة الآخرين هى السفلى ؟ ألايرون أن فى هذا عدوانا على حرية الآخرين ، وإنكارا لشخصيتهم ، وتعاليا عليهم بلا حق ولا برهان ؟ وماذا بعد أن يتخذ امرؤ من نفسه مثلا يضربه للناس ، ويدعوهم إلى تقليده والاقتداء به ؟ بل ماذا بعد أن يضع شاعر نفسه بموضع الحكم بين الشعراء ، لايقضى فيهم بقانون متعالم ، يطبق قواعده ، وينزل على أحكامه ، ولكن ليحملهم على أن يكونوا صورا منه ، أوظلالا له ، ليس لها خصائص ذاتية ، ولا سمات متميزة ، على حين ينقم منهم أشد نقمة وأعنفها أن يحاكوا أئمة البيان ، وأساطين البلاغة ، بين من عرفت الدنيا ، وشهد التاريخ ؟ .

إن الناس يختلفون فى الثقافة كما يختلفون فى الملكات والأذواق . فكيف يرجى أن يجتمعوا على نمط من العبارة معين؟ وما خير أن يكون هذا الاجتماع؟ إن الخير على ماأرى أن يختلف نتاج الشعراء من الشعر ، كما يختلف نتاج غيرهم من غيره ، فيكون للناس من الشعر متاع كثير ، وطعوم منوعة ترضى أذواقهم ، وتثير رغبتهم ، كما يكون لهم من غيره وسائل شتى تسد الحاجة ، وتيسر الحياة .

علينا إذا أن نخلى بين كل شاعر وطريقته ، يحتفظ بها إن شاء ، ويغير

منها إن شاء ، لا نقيده بشيء ، ولا نكرهه على شيء ؛ ثم ننظر فيما يخرج لنا من شعر ، فنقيسه من كل جانب بمقياس الاستقامه والصدق وندع الزمن والرأى العام الأدبى يقضيان فيه ، فقضاؤهما عدل لاهوى معه ، وحسم لامرد له . وليس أقدر منهما على نفى الغثاء ، والتمكين فى الحياة لما ينفع الناس .

لقد حاول كثير أن يهدموا شوقى ، ويزيفوا شعره ، فقالوا فيه ماقالوا ، وعزوا إليه من العيوب والنقائص ماعزوا ؛ فاستمع لهم من استمع ، وأعرض عنهم من أعرض ، ثم مضى شوقى إلى ربه ، وخلفهم وراءه يشهدون بأعينهم عواقب الحرب التى شنوها عليه ؛ حتى إذا سكتت الضجة ، وسكن الغبار ـ أخذت الحقيقة الخالدة تتجلى وتزداد على الأيام تجليا . فإذا شوقى فى موته أبعد صوتا ، وأجل قدرا من شوقى فى حياته ، وإذا شعره بعد عصره يصلح للرواية والغناء ماصلح لهما فى عصره أو يزيد .

وأصبح خصومه بالأمس على مايرى الناس . منهم صريح منصف يعترف له بالفضل والمزية ، فيحمده الناس ويكبرون صنيعه . ومنهم ماكر كتوم ، يصطنع الدهاء ، ويروغ من الحقيقة ، فلا يقول الناس عنه شيئا ؛ ولكنهم يبسمون منه بسمة تغنى عن كل مقال . ومنهم مكابر مصر ، يكرر ماعرف عنه ، ويعيد ما بدأ به ، فيعرض الناس عنه ولا يسمع له منهم سميع .

إن بعض الناس يتهمون الذين لايلقون إلى العبارة بالا ، ولايقيمون لها وزنا بضعف الأداة ، وقلة الثروة من اللغة ، ويزعمون أنهم بانتحال التجديد على هذا النحو إنما يحاولون أن يوارو افيهم هذا النقص ، بل أن يجعلوه منقبة ويخلقوا منه مذهبا يعتزون به ، ويدعون إليه ، ويستبيحون فى حماه أن يسموا من لايجاريهم فيه ، ويتابعهم عليه بالمحافظة والتقليد ، بل الجمود والتخلف . ونحن لانود أن نوافق على هذا الاتهام ، ولا أن نصدق هذا الزعم ، ونعده مجرد رجم بالغيب ، زينه لهم اختلاف الرأى وسوء الظن . وليس يسعنا مع ذلك إلا أن نعجب ونتساءل : كيف نجرى على التخصص فى غير لغة الشعر ،

فنجعل للكتابة الفنية لغة ، والكتابة التقريرية لغة ، والكتابة الديوانية لغة ، وللخطابة لغة ، بل كيف نجرى على التخصص فى كثير من أمور الحياة ، ثم لانرتضى أن تكون للشعر لغة تناسب جماله ، وتعين على التأثير به ؟ وكيف لانتحرج أن نعيب موسيقا اللفظ ، وإن كان صاحبها لايتكلفها ، ولا يتعب فيها ، ونحمد خلافها ، وإن كانت لتغض من جمال الشعر ، وتعرضه معرض الصورة الجميلة فى الإطار المهين ؟ بل كيف لانتحرج أن نمعن فى التجنى والاعتساف فنسوم صاحب موسيقا اللفظ وإن كان أمره على ما وصفنا - أن يدع موسيقاه ، وينزل عن طبقته ، ليأخذ إخذ من هم دونه رشاقة لفظ ورنين موسيقا ، ولا نسوم هؤلاء أن يدعوا تسمحهم ، ويسموا بعبارتهم إلى طبقة أولئك ، ويأخذوا على سننهم من الأناقة والتحرز ؟

لقد أطلت الكلام فى هذه المرحلة ، بما يشبه أن يكون استطرادا منها ، أو عدولا عنها ، ولم يكن من ذلك بد على مايبدو ، وأنا أذهب إلى أنه لاجديد فى الشعر ولا قديم على نحو مافى النثر ، وما أستطيع أن أقول ذلك اقتضابا ، أو أرسل الرأى فيه كما ترسل الحقيقة المقررة . وإذا لا على ألا أنسب على الجندى إلى المدرسة السلفية ، ولا إلى المدرسة العصرية ، فما هو منهما ، ولا هما من الواقع فى شىء ، ولكن الذى لامعدى لى عنه أن أقول إنه من أصحاب الموسيقا اللفظية ، بما يجتمع فى عبارته من طلاوة اللفظ ، وحلاوة الإيقاع .

وإنه بهذا ليمثل ثقافته ، ويدل على مدرسته ، أى المعهد الذى نهل منه ، وتخرج فيه . فعلى الجندى من شعراء دار العلوم ، الذين يتبدى فيهم أدب دار العلوم أصدق مايكون . عربية قويمة منتخلة ، لايميل بها عوج ، ولا يشوبها شوب من دخل ، شريفة مصونة ، لاتجارى السوق . ولا تصانع الدهماء . ولكنها تعلمها ، وتغريها بالصعود إليها . على أنها لاتتجاهل العصر ، ولا تغفل الأخذ بكل جديد ، فيه خير وصلاح .

ملاحظات

ملاحظاتى على شعر صديقى على الجندى لاتعدو أن تكون فى جملتها من النوع الذى تتعدد فيه الآراء ، وتختلف وجهات النظر . وأنا إذ أسميها ملاحظات وأطلق عليها هذا الاسم دون تحفظ ولا تقييد ، فإنما أعنى أنها كذلك فى رأيى ومن وجهة نظرى ، ليس غير ، لأنى لا أعلم رأى غيرى فيها ما يكون ؟

وأول مانعرض له منها أن عبارة الشاعر لاتخلو أحيانا من القوالب اللفظية ينقلها إليها اختيارا وقصدا ، لأنسة بها واستراحته اليها ، أو تسبق هى إليه ، فيخدع عنها ، ولا يتنبه إليها ، من طول ماكررها ، وكثرة مارآها ، حتى امتزجت بنفسه ، ونزلت منه منزلة ماهو من تأليفه وصنعه . ولا أرى أن عليه من هذا بأسا ، ولا أنه مستحق به لوما ، لو أن هذه القوالب كانت مما يمثل شخصيته ، ويتفق مع المعتاد من طبعه وذوقه ، قال من قصيدة « وديعة القطار » .

خطرت كالغزال فاهتز أعلا ها وماجت من تحتها الكثبان

فهذا التصوير الجسدى المثير — لا نراه يتفق من المعروف من حياء الشاعر ، وصحة فهمه وذوقه ، ولا مع مطالب العرف من الغزل ، واتجاه الشعراء به فى العهد الأخير على التخصيص . فقد مللنا المادية ، وضقنا بها فى كل شىء ، ولا سيما بعد ما تمخضت عنه ، وانتهت إليه خلال الحرب الأخيرة وفى أعقابها من شرور ومفاسد وآثام . وأصبحنا نود مخلصين لو تنزهت حياتنا وبخاصة الفنية عن كثافتها ، وخلصت من أدرانها إلى الروحية فى براءة بواعثها ، وسمو منازعها ، وصفاء آفاقها . وقد أصبح الغزل فى مثله الرفيع عاطفة أكثر منه وصفا ، ومعنى أحب منه جسما . وهو حين يتعاطى الوصف لا ينظر إلى الجسم ، وإن يتكلف النظر إليه فعلى استحياء وفى غير إفاضة ولا استقصاء ، حتى ما يكاد يعدو به الوجه وبعض ما فيه ، أو يتصل به من قريب وإنه على كل حال ليتحرج من الكشف والتصريح .

وما كان لهذا البيت أن ينفذ إلى شعر على الجندى ؛ فيعد منه ؛ ويحسب عليه لولا أن القوالب التى جاءت فيه خدعته ، أو استبدت به ، فلم يملك نقده ولا رده . ومن عجب أن يعود إلى هذه القوالب نفسها بالتكرار فى قوله من قصيدة (عبث الغيد) :

وهو إن ماس خشيت الـ ـمتن أن يصرع خصره

وقوله من قصيدة (اللقاء الأول) :

وذراعى بين غصن يتثنى وكثيب

نستطيع إذا أن نقول . إن الشاعر فى هذه الأبيات وأمثالها قد عصى ذوقه وطبعه ، وأطاع حفظه وروايته ، فلم يعبر عن شخصه ، ولكن عن سواه

ولعل مما يهون هذه الملاحظة أن شعر الغزل فى الديوان مما نظمه الشاعر فى مطلع شبابه ، وأنه مع ذلك حين كان يحتكم فيه إلى ذوقه ، ويرجع إلى طبعه يبدو على العهد به من سمو العاطفة ، وروحانية الحب ، استمع إلى قوله من قصيدة (طيف خيالها) .

فلله درى حين أغضى مهابة لرب جمال زارنى وجلال
لبست له برد الخشوع كأننى أقيم صلاتى والحطيم حيالى
سوى قبلة من كفه خلت وقعها على قلبى الحران برد زلال

وقصيدة (بطل حطين) لا نراها كافية فى موضوعها ، ولا سيما إذا قرناها إلى قصيدة (أيقظ النيام) ، فهما من ناحية الموضوع على اتصال كانتاهما فى شخصية لها عند الشاعر حظ من إعجاب . لكنه فى الأولى مقل ، وفى الأخرى مكثر ، ولو شاء لكان مجال القول فى الأولى مثله فى الأخرى بل لكان أوسع مجالا ، وأشد داعية إلى الافتنان . وقد يَدُون مرجع ذلك إلى واحدة من اثنتين أو إلى الاثنتين معاً .

(١) أن القصيدة هدية الشاعر إلى صديق ، وليست تصوره للبطل ، فهو يتجه فيها إلى الصديق أكثر مما يتجه إلى البطل ، ولا يريد بها أن تكون صورة لهذا بقدر ما يريد أن تكون تذكارا لذاك .

(٢) وأن عنوانها (بطل حطين) وليس صلاح الدين . فكأنه أراد أن يتقيد بالموضوع . فما يضيف إليه . ولا يتوسع فيه إلا بقدر معلوم .

(٢) وقد سمى الرسول عليه السلام بالحبيب مرتين فى قصيـــدة (فلق الصباح) . فقال :

وتغن فى وصـف الحبيب فانه لحن يساورنا الهوى بغنـائه

وقال :

وأشرب على عطر الحبيب وطيبه مترنحا فعـل الطروب الثـانه

واللفظة فى نفسها سائغة عذبة . لـكنها تبدو فى هذا المقام أقرب إلى العامية . وأشبه بها . لـكثرة ما تدور فى مقاولات العامة وأحاديثهم . من مثل (صل على الحبيب . وضرب الحبيب كأكل الزبيب) .

وقد استعاض منها الشاعر بكلمة (البشير) فى قوله من قصيدة (هجرة الحق والإيمان) إذ يقول :

هات حدث عن البشير وأطنب فحبيب إلى الورى ما تقـول

وهى فيما أجد أحلى مساغا ، وأفضل موقعا من الحبيب . ولئن تـكن كلمتا (تغن ، واشرب) فى بيتى « فلق الصباح » تمهدان لـكلمة الحبيب فيهما ـ إن ذلك لا يجدى عليها ، ولا يرفع من نسبها . على أن كلتا الـكلمتين إذ ترحب بها لا تضيق بكلمة البشير ولا تنـكرها .

٤ ـ وما أراه يحسن خطاب حبيبه ، ولا ينبغى له خيرا ، إذ يطلب إليه أن يطفىء جمر خده ، وينزع الدر من ثغره فى قوله من قصيدة « لا تلومى فى حبك » :

أطفئى جمرا بخـــديك له فى فؤاد الصب وقد وصلاء

وانزعى الدر من الثغر الذى هو للعشـــاق داء ودواء

فما يطفأ جمر الخد ، وينزع در الثغر على الشباب ، أو الصحة ، أو الحياة .

٥ ـ وفى قصيدة « معاهدة غير ذات موضوع » يقول عن الإنجليز فيما يقول :

عهد كعهد الغانيات وهل وفت للمستهام بها الحسان الحور

وأرى أن المقام أخطر من أن يقبل هذا اللين ، وأبعد من أن يخطر بالبال أمثال هذه المعانى الغزلة اللاهية . فأين التجبر ، والهضيمة ، والعدوان تنزله أمة طاغية قاهرة بأمة صغيرة ناشئة على ماقدمت لها من خير ، واحتملت فى سبيلها من أذى وتضحية — أين هذا كله من خلف الحسان أو وفائهن ؟

٦ — وهو يكرر إدخال ها التنبيه على الضمير المنفصل ، الذى ليس مخبرا عنه باسم إشارة ، فيقول فى قصيدة « أبو الأشبال » :

ها هو اليوم بعد خمسين عاما ينثر الحب فى ثراك ورودا

ويقول فى قصيدة (النفخ فى الصور) :

هم خدعونا بالوعود وها هم لكم أظهروا ما أبطنوه من الغدر

ويقول فى قصيدة (عند ما يثور الكريم) :

وقد عشت دهرا كابن ورقاء وادعا وهأنا فى بردى يكمن ضيغم

ويحكم النحاة بشذوذ أمثال هذه التراكيب : .

٧ - واضطر إلى الإقواء فى قصيدة « جنون الشعر » إذ يقول :

ادفنونى حيا فقد جف ينبو عى ومات الهوى وخاب الرجاء

لا أريد الحياة ليست حياتى بعد فقد الحبيب إلا هباء

وليس بعيدا أن تكون كلمة الهباء مرفوعة وأن يكون الشاعر قد جرى فى رفعها على لغة تميم فى مثل قولهم . ليس الطيب إلا المسك .

٨ - وبعض القوافى لا تطلبه جيرتة ، ولا تفسح له حين يساق إليها ، ولكنه نادر جدا ، كقوله عن دار الزعيم سعد زغلول ، من قصيدة « عسف السلطة العسكرية » .

واستلم ركنها وطف بذراها والثم الترب واسع سعى الكرام

وما كان لمثل هذه الملاحظات أن تنال من هذا الديوان الممتع منالا ، أو أن تغير الرأى فيه شيئا . فالى الصديق الكريم تهنئة خالصة بإخراجه ، وثناء جميل على الإحسان فيه ، ورجاء أن يجعل منه الجزء الأول ، تعززة أجزاء متداركة ، تستوعب شعره كله إن شاء الله تعالى

على الجندى ناصف